كتابة المرأة

بعيدا جدا عن الموضوعية، تقطن كتابة المرأة، تأنيث الكتابة أو كتابة الأنثى تسميتان تداولتهما كاتبات كثيرات، أولاهن سيمون دي بفوار في الخمسينات، وهيلين سيكسو في السبعينات. لن أبسط إلى حد السخف، في قول هاتين الكاتبتين شجعتا كتابة المرأة، ولكن سأقول إنهن تطارحتا التناقض المنطقي الذي يقع بين أن تكتب المرأة ذاتها وأن تتعالى، في نفس الوقت، عن مكونات الذات. من هنا تتشابه كتاباتهما في طرح المرأة كنص مكتوب ويكتب، في الوقت ذاته، المرأة من جديد.

داليا فضيلي

"في نصف الحياة، نصف الضوء الذي تمنحه لنا
ألسنة
غريبة،
في طلاقة لغة الآخر ...
نحن نعيش الماضي في طقوس استرجاع
نكشف الذكريات في زمان بطيء
... لنجمع الحاضر ..."

(أ.ب بوسيا)

وهل كان النقد أبدًا موضوعياً؟ أم أن الكتابة كفعل هي استنساخ للذات قد يرتدي أحياناً القناع الموضوعي؟ وإن كان الأمر كذلك، أين إذاً يتجسد هذا المصطلح الواهم؟ أهو في نصوص التاريخ، الثيولوجيا أم السياسة؟

الخبر اليقين هو أن ما بعد الحداثيين قد شيعوا جثمان الحلم الموضوعي ومثله الواقعي منذ أمد ليصبح هذان المصطلحان مخلفين أثريين لنهاية القرن التاسع عشر.

أين إذاً يقع السبب في تطارحي لهذا السؤال الأولي؟ وأين أبغي أن أصل إن كان الأمر قد حسم، وتاريخياً؟ لأكفّ عن تساؤل يؤدي إلا آخر، وتلاعب بالألفاظ ما هو إلا غير، ما لي إلا أن أشرع بخوض الإجابة.

ليست الموضوعية ولا الواقعية وحتماً ليست ما بعد الحداثة هي ما أبغي، ولكن موضوع آخر نبع من كلها ليخلق، خلافاً لها، ما يمكن أن أسميه كيان بديل في الأدب، ولعله للأدب، ولست أدري بعد!

كتابة المرأة، كون هذا المصطلح مشروع أم لا، لا زال قيد البحث، أين تحق التسمية وأقصد هل كل امرأة تكتب هي تكتب كامرأة؟ حسب الواقعية الموضوعية كمدرسة، هنالك كتابة إنسانية عالمية لأن الواقع واحد ومعروف. في حين ينشطر الواقع عند ما بعد الحداثيين ليصبح تجربة، والتجربة هي أمر ذاتي محض، من هنا إذاً انبثق المصطلح المطلق على نسوية الكتابة، لكن بالرغم من أن ما بعد الحداثة كمدرسة ظهرت زمنياً بعد الواقعية، وأسست قلاعها على أنقاض هذا السلف، إلا أن الأمر لم يقرر بعد بالنسبة لكتابة المرأة.

كثيرة هي الآراء مؤيدة ومعترضة، قابلة ورافضة، إلا أنني أريد التمحور في أربع نساء كتبن وتداولن الموضوع وهن: هيلين سيكسو، سيمون دي بفوار، رشيدة بنمسعود ويمنى العيد.

الباحثتان النسويتان الفرنسيتان وتنضم إليهما – بيد أنه باعتدال ملحوظ – الباحثة المغربية بنمسعود، يسعين – كل بطريقتها – لتوطيد الكيان النسوي البديل، يمنى العيد من الجهة الأخرى ترفض كتابة المرأة كتقيّد "بعالم المرأة الصغير الذي هو عالم الهموم الذاتية". (مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي، ص65). لكن، وحتماً، كلهن يساهمن بنحت هذا الصرح.

"امرأة، بسيط جداً، سيقول متوهمو المعادلات السهلة: هي رحم، جسم، هي أنثى، هذه الكلمة كافية لتعريفها"*. (الجنس الثاني، ص3) لكن دي بفوار، وبإصرار، ترفض المصطلح "أنثى" لكونه يرمز إلى "حيوانية المرأة" كمحاولة لتدنئتها في مقارنة مع المصطلح "رجل" كصرح اجتماعي موطّد وكلمة ترمز وتشير إلى كل المجتمع الإنساني (في اللغة الإنجليزية هذه التصنيفات تبدو أوضح لوجود كلمة Man – رجل – في كلمة Human – إنسان – وكلمة Mankind – جنس بشري –).

من هي المرأة، إذاً، تتساءل دي بفوار، أهي "كيان نسبيّ"، "جنس ضائع"، "جنس آخر"؟ (الجنس الثاني، ص50). من هي؟

في محاولتي لفهم إجابة دي بفوار على هذا السؤال استغربت أن هذه الباحثة ترفض المصطلح "جنس" وبالذات "أنثى" لإشارتهما إلى كيان بدائي، في حين تؤسس كل نظريتها عليهما كضرورة لا مفر منها. لعله تناقض، ولعله تناقض مشروع يبين أن هذه الباحثة مهما استنكرت لن تنكر الحقيقة البيولوجية الواضحة.

وعليه هناك تباين في رؤية دي بفوار للمصطلح "الغيرية" (otherness) التابعة للمرأة والتي هي بالأساس بيولوجية ليس إلا. من جهة واحدة هذه الكاتبة تؤكد على استعمال الكلمة "امرأة" كمصطلح كجزء من توطيد شرعيته، مؤكدة أن المصطلح يتشكل بيولوجياً، اجتماعياً، سيكولوجياً، حضارياً وعبر التاريخ أيضاً، كل هذه الملكات صممت المرأة، ولكن – في نفس الوقت – حددت لها وجود "آخر"، وغير معترف به أحياناً (الجنس الثاني، ص66).

لذلك أعلنت دي بفوار وبحزم أنها تريد استبدال المصطلح "آخر" بالمصطلح "مختلف" وكأن في الاختلاف تقبُّل للطرف "الثاني" (وعمداً لم أستعمل "الطرف الآخر" هنا، لأن القصد دحض التسمية) ففي الاختلاف والاعتراف به، تدعي دي بفوار، مصدر

* الاقتباسات المأخوذة من كتابات هيلين سيكسو وبفوار الموجودة في هذا المقال هي ترجمة ذاتية، أخذت على عاتقي ترجمة مقاطع من كتابات هؤلاء الكاتبات بعد عجزي عن إيجاد أي مادة مترجمة لهما.

للمساواة. فالمساواة هي ليست التشابه ولكن الاعتراف بحق الإنسان أن يكون مختلف، من هنا ففي نهاية كتابها "الجنس الثاني" تؤكد دي بفوار أن هدفنا هو ليس "وضع الرجل في سجن، لكن تحرير المرأة من هذا السجن" (الجنس الثاني، ص717).

حين نشرت دي بفوار "أفكارها النسوية" في الخمسينيات، جاءت هيلين سيكسو في السبعينيات لتطوّر المصطلح "اختلاف" في محاولة جريئة وصاخبة لتقويض ما أسمته "الثنائيات الحضارية" (ضحكة الميدوزا، ص313). المجتمع الإنساني حسب سيكسو مبني على ثنائيات مثل قمر/شمس، قلب/عقل، طبيعة/حضارة، موت/حياة، وعليه أيضاً: رجل/امرأة. واضح أن هذه ثنائيات متوترة، ففي جهة واحدة منها يوجد قطب سلبي، غامض، غير معرّف، والمرأة تنتمي لهذا القطب، بينما في الجهة الثانية يوجد عنصر ثابت، واضح معترف به: كعقل، حضارة، رجل.

التوتر نابع طبعاً من التناقض، وفي كل مرة يُخضع الرجل المرأة لهذا التناقض هو "يقطع رأسها" (Decapitation) (ضحكة الميدوزا، ص315) لأن الحضارة كرمز تميت الأول في سبيل إحياء الثاني، ولهذا تعيش المرأة – ويا للتناقض – حالة "موت رمزي" في الحضارة (الميدوزا، ص316). أين العجب إذاً أن المرأة صامتة في التاريخ، في السياسة، في الدين والأدب، على المرأة إذاً أن تستحضر لسانها، رأسها وجسدها، وهذا سيتم فقط عبر الكتابة، هكذا تصرّ سيكسو.

الكتابة عند سيكسو إذاً هي فعل إحياء وإنشاء وولادة لما سمته هي، ودي بفوار من قبلها "امرأة"، في كتابة تؤكد مكانة المرأة "في مكان آخر غير المعد لها من قبل الرمز" تلد المرأة نفسها من جديد. ولتكون هذه الولادة حقيقية على "المرأة أن تكتب المرأة" كاحتفاء بكيانها المختلف وكمحاولة لإعادة كتابة "تاريخ المرأة" (الميدوزا ، ص312)، من هذا المنطلق فقط وحسب سيكسو ستلج كتابة المرأة في نصوص متميزة، أنثوية هازئة ومستهترة من الوحي الموضوعي الواهم لكلمة نص، تؤكد سيكسو أن المرأة يجب أن

تكتب ما أطلقت عليه تسمية "جـــ – نص أو جِنَص*، وبه ســـتكون ولادة المـــرأة إلى جوف التاريخ والحضارة والرمز كأصل اللغة.

جداً رائع، متحد ومشجع ما تدعيه وتحاوله عملياً سيكسو، لكـــن مهـــلاً وقبـــل أن ننجرف لا زلت لا أستطيع التخلص من روح التناقض الموجودة ليس فقط في الحضـــارة الإنسانية ولكن أيضاً في نظرية سيكسو نفسها، فيبدو لي أن هذه الكتابة تناقض نفســـها فعلاً. سيكسو ادعت منذ البداية أن في المصطلح "اختلاف" تقويض لثنائية السلبية/إيجابية التي تحكم على المرأة بالإعدام الرمزي، لكن أليس في استعمالها لكلمة "جنص" ، "sext" استرجاع لهذه الثنائية؟ فأي جنيس نعرف غير "امرأة/رجل" هذا إذا ، وحسب سيكسو، يعود مرة أخرى ليقسم التجربة الإبداعية إلى ذكورية/أنثوية، أين الجديد إذاً؟ أهو في منح الثنائية بعض من الصلاحية، أم في إعادة تعريفها، أم في تقويضها؟ يبدو لي أن الرأي الثاني هو الأرجح.

في الطرف الثاني من العالم، وفي مقالها "مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي" التي نشرته يُمنى العيد عام 1975 – نفس الفترة التي اشتهرت فيها كتابات سيكسو في الغرب – تـــرفض مصطلح الأدب النسائي كمتحدد من خلال التصنيف الجنسي، هي تدعي أن في استعمال هذا المصطلح دلالات "مشحونة بالمفهوم الحريمي الاحتقاري" (مساهمة المـــرأة، ص67). في الحقيقة أن توجه العيد للكتابة هو توجه ماركسي محض. هي تؤكد أن الكتابة هي منتوج واقع اجتماعي معيّن، وليس بيولوجي. وترى في الإبداع أمل في توحيد الطاقات – المرأة والرجل – من أجل "تحقيق التحرر الاجتماعي الوطني للشعوب المناضلة" (مساهمة المرأة، ص68). ولعل سيكسو والعيد تتفقان أن "مساهمة المرأة الأدبية تهدف إلى تغيير موقعهـــا في المجتمع الذي يتحدد تاريخياً خارج عملية الإنتاج الأدبي" (مساهمة المرأة، ص68)، لكل في حين سيكسو تصنّف التجربة الإبداعية، العيد تحتفي بشموليتها.

---

* هذه الكلمة منحوتة من الكلمتين "جنس" و"نص" كمحاولة لترجمة استعمال الكتابة لكلمة sext بدلا من text.

ساعد في ترجمة الكلمة د. فاروق مواسي.

من منهما محقة؟ أتساءل الآن وأنا أدنو عتبة الاستنتاج، أهو ادعاء سيكسو أنه يمكن أن تكون للمرأة كتابة انعزالية محض أنثوية، أم في ادعاء العيد أن هذا الانعزال رفض للإنسان الشمولي في الكتابة والمجتمع؟ تبدو لي المعادلة بطرفيها صعبة التحقيق، لربما – أتخيل مقابلة بين الاثنتين – ستتهم سيكسو العيد أنها تفكّر كرجل وأن المجتمع الذكوري قد "درّبها" لتنكر ذاتها متوهمة بالشمولية، وقد تتهم العيد سيكسو أنها تتجاهل كون المرأة إنسانا وأنها لا تستطيع أن تعيش أو تكتب بمعزل عن باقي المجتمع، وباقي المجتمع في هذه الحالة هم فقط – بمحض الطبيعة – رجال، وهذا يرجعنا إلى اعتراض دي بفوار على استعمال كلمة إنسان لدلالاتها الذكورية، النافية كون المرأة إنسانا بحكم التعريف اللغوي، فحتى في اللغة العربية كلمة إنسان مذكرة وليست مؤنثة.

ما بين هذه الكاتبات الثلاث ألجأ إلى رشيدة بنمسعود هرباً إلى إحساس معين من الاعتدال فهذه الباحثة تتساءل وفي تساؤلها أجد تلخيصاً لكل مقالي هذا، هي تتساءل "لماذا لا يقع التعامل مع الأدب النسائي بنفس الطريقة والمرتبة اللتين نتعامل بهما عند حديثنا عن كل أدب مهمش له خصوصية، إننا اليوم نسلم بوجود أدب للأقليات الثقافية، ونقول بالرواية السوداء في أمريكيا وأدب الشطار، فلماذا لا نقول بالأدب النسائي؟" (المرأة والكتابة، ص82).

بنمسعود محقة فالخوف من التسمية يرجع إلى شرطين أساسين تؤكدهما جل المرافعات النظرية التي صاحبت ظاهرة الأدب النسائي، الشرط الأول هو غياب التصور النقدي الذي لم يصل بعد إلى مستوى دراسة هذه الظاهرة وتفكيكها داخلياً، و لم يبحث عن أسباب وجود خصائصها المميزة، والثاني هو إلصاق تهمة الدونية في هذا الأدب والتغاضي عن "سؤال خصوصيته وبلاغة اختلافه" (المرأة والكتابة، ص1).

المراجــع

المراجع العربية:

1. العيد، يمنى "مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي" الطريق، العدد4، نيسان، 1975، ص66.
2. بنمسعود، رشيدة، **المرأة والكتابة – سؤال الخصوصية، بلاغة الاختلاف**، المغرب: أفريقيا الشرق، 1994.

المراجع الأجنبية:

3. Cixous, Helene',"The laugh of the Medusa". Critical Theory Since 1965, Eds. Hazard Adams and Searle. Florida: Up, 1989. 309-355.
4. De Beauvoir, Simone, The Second Sex. New York: Vintage, 1989.